دُور
العلاج والرعاية
في الإسلام

اسم الكتاب: دُور العلاج والرعاية في الإسلام
تأليف: سعيد الديوه چي
الطبعة الأولى: ٢٠١٨م - ١٤٣٩هـ

© جميع الحقوق محفوظة

ISBN 978-614-424-246-9

الدار العربية للموسوعات

المدير العام: خالد العاني - KHALED AL ANI

الحازمية - مفرق جسر الباشا - سنتر عكاوي - ط١ - بيروت - لبنان
ص.ب: ٥١١ الحازمية - هاتف: ٩٥٢٥٩٤ ٥ ٠٠٩٦١ - ٩٥٥٦١٨ ٥ ٠٠٩٦١
فاكس: ٤٥٩٩٨٢ ٥ ٠٠٩٦١
هاتف نقال: ٣٨١٠٨١ ٧٦ ٠٠٩٦١ - ٣٨٨٣٦٣ ٣ ٠٠٩٦١ - ٥٢٥٠٦٦ ٣ ٠٠٩٦١
الموقع الإلكتروني: www.arabenchouse.com البريد الإلكتروني: info@arabenchouse.com

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن مسبق من الناشر.

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

دُور
العلاج والرعاية
في الإسلام

تأليف

سعيد الديوه چي

تقديم

أ. د . أُبيّ سعيد الديوه چي

الدار العربية للموسوعات
بيروت

تقديم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد..

دُور العلاج والرعاية في الإسلام من الكتب التي نشرها الوالد: سعيد الديوه چي، وكان ذلك سنة (١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م)، وقد أضاف عليها في هذه الطبعة ملاحظات كثيرة من نصوص وأقوال وتصحيح لمعلومات، وقد حاولت - وبجهودي المتواضعة - أن أعيد نشرها ثانية، في وقت غابت عني مكتبة الوالد والتي أهديت بعد وفاته إلى مركز دراسات الموصل في جامعة الموصل، وللأسف الشديد فقد أحرقت المكتبة الغنية في كتبها ووثائقها ومصادرها المنوعة والتي كان الوالد يحتفظ بها، يقضي أكثر أوقاته فيها، جمعها منذ صغره، واحتفظ بها على نحو مرتب، وحرص عليها كل الحرص، لكن أعداء العلم والمعرفة أحرقوها، فكانت خسارة لا تعوض.

وقد وفقني الله سبحانه وتعالى في إعادة طبع غالبية كتب الوالد وما تضمنته من إضافات، ومستمر في طبع الكتب الباقية المنشورة وغير المنشورة، وهذا العنوان - وعلى صغر حجمه - فقد كانت

الإضافات فيه كثيرة رغم إحراق المصادر المطلوبة والتي معظمها كانت في مكتبة الوالد، من مخطوطات وكتب ووثائق ومصادر منوعة.

ومن دون ريب أقول إن هناك بعض الفجوات والنواقص قد لا تخفى عن القارئ، من نقص في المصادر أو عدم الدقة في كتابة نص ما أو خطأ في الأسماء، وغيرها من الأمور، لأنني أدرك أن إعادة طباعة ونشر العناوين هذه قد لا تكون متاحة مستقبلاً، وأخص بالشكر للأستاذ الدكتور أياد الحسيني الذي تفضل بتصميم غلاف الكتاب، فجزاه الله خير الجزاء.

نأمل أن يكون الكتاب - وعلى هيئته هذه - مفيداً.

والله من وراء القصد.

أ. د . أُبيّ سعيد الديوه جي

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

■ **اهتمام المسلمين بالطب:**

عانى العرب من صناعة الطب في جاهليتهم، ودعاهم إلى هذا اهتمامهم بحفظ صحتهم، وهو دافع طبيعي لكل حي، وكان لهم وقوف على بعض العقاقير والأمراض اكتسبوه من تجاربهم ومن الأمم التي اتصلوا بها، وفي لغتهم ألفاظ كثيرة لأسماء الأمراض والعقاقير والأدوية وأسماء الأعضاء الباطنية والظاهرة لجسم الإنسان، وأوصافها وأجزائها الدقيقة.

وكانوا يعالجون تارة بالعقاقير وأحياناً بالرقى والسحر والكهانة والأوهام، ومن أمثلتهم السائرة:

«**داو كل امريء بعقاقير بلاده**» كما كانوا يستعملون الحجامة والكي بالنار، وقد جعلوا الكي آخر الدواء.

وظهر - قبيل الإسلام - أطباء درسوا الطب في بيمارستان جنديسابور في بلاد فارس، ومهروا في فنهم، وتعاطوه في بلاد العرب وفارس.

فالحارث بن كلدة الثقفي، سافر من الطائف إلى جنديسابور،

وتعلم الطب في بييمارستانها، وجاء في الطب، وطّبّ في أرض فارس، وحصل له بذلك مال كثير، وكانوا يقدمونه على أطبائهم، ثم اشتاقت نفسه إلى بلده، فرجع إلى الطائف واشتهر طبه بين العرب، وأدرك الإسلام، وكان رسول الله (ﷺ) يأمر من كانت به علّة أن يأتيه فيسأله عن علته، وأدرك الحارث معاوية بن أبي سفيان.

ومن أطباء العرب: الشمردل الكعبي النجراني، وفد على النبي (ﷺ) مع وفد نجران، فتقدم إلى الرسول (ﷺ) وقال: «يا رسول الله بأبي أنت وأمي كنت كاهن قومي في الجاهلية، وإني كنت أتطيب فما يحل لي؟ قال عليه الصلاة والسلام: فصد العرق، ومجسة الطعنة إن اضطررت، ولا تجعل من دوائك شراً ما، وعليك بالسنا ولا تداوي أحداً حتى تعرف داءه، فقبل ركبته وقال: والذي بعثك بالحق أنت أعلم بالطب مني».

وكان عليه الصلاة والسلام يحث المسلمين على مراجعة الأطباء والاستفادة من خبرتهم، وحرم الشعوذة والدجل وإتيان الكهان، وعدّ هذه الأمور من الكبائر، فهي كفر محض.

دخل رسول الله (ﷺ) على مريض يعوده فقال: أرسلوا إلى طبيب، فقال قائل: وأنت تقول ذلك يا رسول الله؟ قال: نعم، إن الله (ﷻ) لم ينزل داءً إلّا وأنزل معه دواءً[1].

وقد جعل النبي (ﷺ) تعلم الطب من فروض الكفاية، بحيث

(١) ابن الجوزي، عبد الرحمن، الطب النبوي، مصر، (١٣٧٧هـ/١٩٥٨م)، ص١٠٦.

يجب أن يكون في الأمة من يعاني هذه الصناعة، ليحفظ صحة الناس، وإذا ما فقد هذا العلم، فإن الإثم يقع على كافة المسلمين.

جاء أعرابي وسأله: أنتداوى يا رسول الله؟ قال (ﷺ): نعم يا عباد الله تداووا، فإن الله لم ينزل داءً إلّا وأنزل معه شفاءً، علمه من علمه، وجهله من جهله.

وجاء في الأثر أن الامام الشافعي قال: العلم علمان، علم الأبدان وعلم الأديان، وكان رسول الله (ﷺ) يحذر قومه من المصابين والمجذومين والمرضى، فقال: فر من المجذوم كما تفر من الأسد.

وقال (ﷺ): «إذا وقع الطاعون بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها فراراً منه، وإذا وقع برض ولستم بها فلا تهبطوا عليها»، وهذا هو الحجر الصحي الذي يضرب على الأقطار التي بها وباء أو مرض سار، فالرسول (ﷺ) حذر المسلمين من العدوى، وحثهم على مراجعة الأطباء إذا ما مرضوا، وأخذ العلاج طلباً للشفاء، **فقال**: «**إن الله أنزل الداء والدواء وجعل لكل داء دواءً**».

كما حذر المسلمين من عاقبة الدجل والخرافات والأوهام التي كانت تسيطر على عقولهم وأودت بحياة الملايين منهم، فكافح هذه الشرور وحررهم من أتباعها، لأنها تؤدي إلى استعباد العقول وتقييدها بقيود تسوقهم إلى الهلاك والدمار، فوجه القوم إلى الطرق العلمية الصحيحة النافعة التي تؤدي بهم إلى الخير والشفاء، ولذا جعل تعلم الطب فرض كفاية عند المسلمين[١].

(١) الديوه جي، سعيد، الخدمات الاجتماعية في الإسلام، ص ص٣٠-٣٣.

ويجب أن يكون في الأمة من يعاني هذه الصناعة حفظاً لصحة المجتمع، وإذا ما فقد هذا العلم فإن الإثم يقع على كافة المسلمين الذين قصّروا في هذا، ولما كان عندهم من الأثر عن النبي (ﷺ) **حيث يقول: «يا عباد الله تداووا فإن الله (ﷻ) لم يضع داءً إلّا وضع له دواءً، إلّا واحداً وهو الهرم»**[١].

وقد ورد في كتاب الطب النبوي روايات وأحاديث كثيرة.

فمن الواجب على المسلم أنْ يعنى بنظافة جسده وثيابه، وأنْ يحسن معالجته ولا يرهقه في الأعمال التي تتعبه فوق طاقته، وتؤدي بإضعافه وهلاكه. **قال رسول الله (ﷺ): «إن لجسدك عليك حقاً»، «والمؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف».**

وورد عن الإمام الغزالي «الطب حفظ الصحة ومرمة العلّة»، وقال الرازي: الطب: معرفة الداء وتوقيه بالدواء، وجاء أيضاً: العلوم ثلاثة: علم الدين لمعادكم، وعلم الطب لأبدانكم، وعلم الهندسة لمعاشكم. وقال الإمام الشافعي: «لا أعلم علماً بعد الحلال والحرام أنبل من الطب»، قال حرملة: «كان الشافعي يتلهف على ما ضيع المسلمون من الطب، ويقول: ضيعوا ثلث العلم». وقال ابت تيمية: «الأطباء وأهل الهندسة من أذكياء الناس».

وأن خلفاءه اهتدوا بهديه، وساروا على الطريق المستقيم الذي أرشدهم إليه، فكانوا من دعاة العلم والمعرفة، كافحوا الدجل والخرافات، وسهلوا للقوم الاستفادة من علوم من سبقهم من

---

(١) الغزالي، الإمام أبو حامد محمد، إحياء علوم الدين، مصر، (١٢٢٦هـ/ ١٨١١م).

الأمم، فأخذوا عنهم كل نافع ومفيد يؤدي إلى حفظ أبدانهم سالمة صحيحة **امتثالاً لقوله** (عليه السلام): «**العقل السليم في الجسم السليم**».

يقول صاعد الأندلسي: عن اهتمام المسلمين بعلم الطب في صدر الإسلام: «إن العرب في صدر الإسلام لم تعن بشيء من العلوم إلّا بلغتها ومعرفة أحكام شريعتها - حاشا صناعة الطب - فإنها كانت موجودة عند أفراد منهم غير منكرة عند جماهيرهم لحاجة الناس طرأ إليها، وكان الطب في طليعة العلوم التي اهتم العرب بترجمة كتبه عن كثير من اللغات، وأول من كان له الفضل في هذا هو **خالد بن يزيد بن معاوية** المتوفى سنة (٨٥هـ/ ٧٠٤م)».

وفي خلافة مروان بن الحكم (٦٤-٦٥هـ/ ٦٨٤-٦٨٥م) نقل ماسرجويه البصري كناش (أهرون بن أعين) من اللغة السريانية إلى العربية وهو كتاب نفيس في بابه[١].

ولمّا تولى الخلافة **عمر بن عبد العزيز** (٩٩-١٠١هـ/ ٧١٦-٧١٩م) وجد الكتاب في خزائن الكتب بالشام، ونظراً لما يحويه الكتاب من فوائد طبية فأمر بإخراجه وبثه بين الناس لكي ينتفعوا به[٢].

ثم أقبل المسلمون بعد ذلك على الترجمة والتأليف حتى نمت وأثمرت في العصر العباسي، وبلغ اهتمام العباسيين بعلوم الحكمة، ومنها الطب، أن الخليفة المأمون (١٩٨-٢١٨هـ/ ٨١٤-٨٣٣م)

(١) محاضرات الراغب: ١: ٢٠٢، ١٧: ١.

(٢) ابن الجوزي، عبد الرحمن، سيرة عمر بن عبد العزيز، مصر، (١٣٣١هـ/ ١٩١٣م).

شرط على ملك الروم أن يبعث إليه بكتب الحكمة بدلاً من المبالغ الكبيرة التي كان يقدمها إليه جزية، وأرسل المأمون عدة وفود إلى بلاد الأناضول وقبرص وبلاد فارس ليجمعوا له الكتب المختلفة في الحكمة[١] وقرب الخلفاء الأطباء وأغدقوا عليهم الهبات الكثيرة والهدايا الوافرة المتنوعة، وقلّما نجد خليفة إلّا وله طبيب أو أكثر في قصره.

وذكروا أن ما كان يتقاضاه **جبرائيل بن بختيشوع** من **الخليفة هارون الرشيد** وأهل قصره يزيد على (٤) ملايين درهم في السنة[٢].

وكان بختيشوع بن جبرائيل يضاهي الخليفة المتوكل في اللباس والفرش، وكان الخليفة المتوكل يجلس والطبيب معه على السدة، وربما جلس الطبيب والوزراء والأمراء والقواد وقوف، وكانت قصور بعض الأطباء بما فيها من مظاهر الترف والنعيم والأثاث والرياش ما لم يكن مثلها في قصور الخلفاء[٣].

واقتدى بهم الأمراء والمتمولون في الأغداق على الأطباء للاستفادة من علمهم وتعميمه ونشره بين سائر الطبقات، حتى ذكروا **الأمير سيف الدولة الحمداني** (المتوفى سنة ٣٨١هـ/ ٩٩٢م)

---

(١) ابن أبي أصيبعة، أحمد، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، مصر، (١٣٢٩هـ/ ١٩١١م)، ص١٦٣؛ الديوه جي، سعيد، بيت الحكمة، ص.

(٢) الديوه جي، بيت الحكمة، مصدر سابق، ص ص٢٠-٢٤؛ ابن الفوطي، الديوه جي، خالد بن يزيد، دمشق، (١٣٧١هـ/ ١٩٥٢م)، ص٢٠-٢٤، صاعد بن محمد الأندلسي، طبقات الأمم، مصر.

(٣) غوستاف لوبون، حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، القاهرة، (١٣٧٥هـ/ ١٩٥٦م)، ص٧٤.

كان إذا أكل وقف على مائدته (٢٤) طبيباً، وكان فيهم من يأخذ رزقين لأجل تعاطيه علمين، ومن يأخذ ثلاثة لتعاطيه ثلاثة علوم[١].

كل هذا يدلنا على مدى اهتمام القوم بأمر الأطباء، وحرصهم على بث هذا العلم الجليل النافع بين سائر الطبقات.

ومن الأعمال الجليلة التي كان لهم فيها القدح المعلى هي الملاجئ الخيرية المختلفة التي أسسوها في مختلف البلاد، وتنافسوا في بنائها وأوقفوا لها الأوقاف المختلفة الكثيرة التي كانت ترصد لإدامة الملجأ والنفقة التامّة على ما يلزمه من أثاث وقومة وضروريات، وهذه الأوقاف مصونة مرصدة على ما أوقفت له مهما تبدلت الأوضاع السياسية للبلد، فالوقف لا يبدل ولا يمس، لأن شرط الواقف كنص الشارع، والوقف يبقى مرصوداً على النفع العام الذي أوقف له[٢].

وتنوعت الأوقاف على الملاجئ والمدارس ودُور الحديث ودُور القرآن والمكاتب والأربطة وخزائن الكتب ودُور الأيتام والمستشفيات المختلفة والجسور والقناطر وتعبيد الطرق وخانات السبيل ودُور الضيافة والآبار والمياه وغير ذلك من المرافق الأخرى، حتى أن بعضهم أوقف للقطط والكلاب والحمام والأسماك، وأن الإنسان ليعجب غاية العجب عندما يطّلع على كثرة الأوقاف عند المسلمين وتنوعها وصرفها على الأمور العامة التي

(١) ابن جبير، محمد، رحلة ابن جبير، مصر، (١٣٥٦هـ/ ١٩٣٧م).
(٢) ابن أبي أصيبعة، مصدر سابق، ص١٣٦-١٣٧.

تؤدي إلى رفاهية الشعب، وحفظ صحته وتعليم أبنائه وتذليل كل صعب[١].

والكلام على هذه الملاجئ المختلفة يحتاج إلى بحث طويل وموسع، وسنعرض في بحثنا هذا على الملاجئ الصحية التي كانت عند المسلمين في القرون الوسطى والخدمات الكبيرة التي قدموها للمجتمع الإسلامي[٢].

(١) المصدر السابق.

(٢) الغزالي، أبو حامد، إحياء علوم الدين، مصر، (١٢٨٢هـ/ ١٨٦٥م)، ص١٦٦.

الفصل الأول

المستشفيات الثابتة

١ البيمارستان (المستشفى):

لما مرض سعد بن معاذ (رضي الله عنه) أمر رسول الله (ﷺ) أن تنصب له خيمة في المسجد، وكانت الخيمة لامرأة يقال لها رفيدة، كانت تداوي الجرحى، وتحبس نفسها على خدمة من كان فيه ضبعة من المسلمين، وكانت تساعدها أختها كعبة بنت سعيد الأسلمية.

فكانت هذه الخيمة النواة الأولى للمستشفيات التي كثرت فيما بعد في البلاد الإسلامية، وقلما كانت تخلو مدينة منه.

وكانت رفيدة أول ممرضة في الإسلام، أوقفت نفسها على خدمة المرضى ومعالجتهم تطوعاً وطلباً للثواب.

وقال معاوية بن أبي سفيان عن النساء: «ما مرض المرضى ولا ندب الموتى مثلهن»[1] وسار خلفاء سيدنا محمد (ﷺ) على هديه في تخفيف آلام المرضى، فأنشأوا البيمارستانات، وأول بيمارستان هو

---

(١) ابن عبد ربه، أحمد، العقد الفريد، مصر، (١٣٧٢هـ/ ١٩٥٣م)، ج٣، ص٢٣٥.

الذي أنشأه الوليد بن عبد الملك في الشام، واقتدى به الحجاج بن يوسف الثقفي، فبنى البيمارستان، وأجرى على المرضى الأرزاق، وخصص لهم الأطباء لمعالجتهم.

كانت هذه البيمارستانات في أول أمرها بسيطة، وأخذت تتوسع ويدخلها الإضافات الكثيرة على مر السنين، حتى كانت في أواخر القرن الثاني للهجرة بحالة مرضية، فيها كثير من التسهيلات التي يتطلبها المريض من علاج وطعام وأشربة وثياب وحاجات أخرى.

شارك في إنشائها أهل البر والإحسان، فبنوا البيمارستانات وأوقفوا لها الأوقاف الكثيرة التي تكفل إدامتها من بناء وأثاث وأطباء وصيدلية وخدم وفراشين، وكان الناس يتسابقون في إنشاء هذه البيمارستانات، ويتنافسون في توسيع البناء وتنويعه وتجهيزه بأحسن الأثاث والعقاقير وجلب الأطباء البلرزين وترغيبهم بالاشتغال فيه ابتغاءً لمرضاة الله وخدمة لعباده.

■ **العيادة الخارجية تكون في المستشفى:**

كان المستشفى يشتمل على جانبين: أحدهما للرجال والآخر للنساء، وفي كل من هذين القسمين القاعات الواسعة، وقد يتخللها الماء، مما يروح على نفوس المرضى، ويلطف المناخ، إن كان الزمن صيفاً.

وكثيراً ما كانوا يختارون أنزه الأماكن وأطيبها ليبنوا عليها المستشفيات، ويفضلوا أن تكون الربوات أو الأنهار، فقد كان البيمارستان العضدي في بغداد على دجلة، يدخله ماء النهر، يتخلل فناءه وقاعاته، ويعود يصب في دجلة.

وكان المستشفى المجاهدي الذي بناه مجاهد الدين قيماز قرب

الجامع المجاهدي في الموصل على نهر دجلة أيضاً، ويذكر ابن جبير عن بناء المدرسة والجامع والبيمارستان بأن مقاصيرها التي على دجلة تذكر بمقاصير الجنة، وأنه لم ير محلاً أنزه من هذا المكان[١].

وكان في كل قسم من الأقسام قاعات مقسمة حسب الأمراض، لكل قاعة طبيب أو أكثر، وعليهم رئيس وهو رئيس أطباء ذلك القسم.

فقاعة للأمراض الداخلية، وأخرى للمجبرين، وثالثة للكحالين، وأخرى للطبائعيين، وقاعة للولادة وغير ذلك من المرافق الأخرى مما تقتضيه أنواع الأمراض.

وكانوا في المستشفيات يقسمون بعض الأقسام قاعات، فمثلاً **قاعة للمحمومين وقاعة للمبرودين (المتخومين) وقاعة لمن مصاب بالإسهال وهكذا.**

وقد يكون في المستشفيات الكبيرة محل نزه جميل هادئ للناقهين، يرسلون الموسيقيين إلى المستشفى لتسلية المرضى أو التاقهين، وإذا ما شفي المريض فإنهم كانوا يبقونه في المستشفى ثلاثة أيام، يقومون بطعامه وراحته، وبعد هذا - إن كان فقيراً - فإنهم يلبسونه ثياباً جديدة ويرسلونه.

أما عدد أطباء المستشفى فكان يتوقف على سعة المستشفى، فقد يكون به (٤) أو (٦) أو (١٠) أطباء، وقد يكون في المستشفى العضدي (٢٤) طبيباً.

---

(١) ابن جبير، محمد، رحلة ابن جبير، مصر، (١٣٥٦هـ/١٩٣٧م)، ص١٨٦.

وفي المستشفى رئيس يسمى الساعور، وهو رئيس أطباء المستشفى.

وفي المستشفى الغلمان: وهم الذين يقومون مقام الموظفين الصحيين والمضمدين في هذا الزمن، وفي المستشفى الخدم على اختلاف أنواعهم: من فراش وطباخ وكناس وخادم للمريض وغيرهم.

وقد يلحق بالمستشفى صيدلية تكون كاملة مجهزة بما تحتاجه المستشفى من معاجين وعقاقير وأدوية وغيرها من اللوازم، ولها رئيس يسمى رئيس الصيادلة، ودونه الصيادلة الذين يقوم كل منهم بما هو معين له من العمل، ودونهم الغلمان الذين يقومون بمساعدة الصيادلة في تحضير الأدوية وتركيبها حسب ما يتطلب، ويكون هذا تحت نظر رئيس الصيادلة[١].

ويرأس المستشفى بكافة فروعه ناظر يسمى ناظر المستشفى، قد يكون برتبة وزير أو قائد وممن يعتمد عليهم الخليفة أو الملك الذي أوقف المستشفى، وله النظر المطلق في أمر المستشفى، وتحت يده ناظر الوقف الذي يشرف على أوقاف المستشفى، ويقدم ميزانية الواردات والنفقات للناظر، ولذا البت يراه من صالح إدامة المستشفى وراحة المرضى.

أما تفتيش المستشفى فكان منوطاً بصاحب الحسبة، فكان له الحق أن يدخل المستشفيات ويتفقد المرضى، ودرجة العناية بهم،

---

(١) أحمد عيسى بك، البيمارستانات في الإسلام، دمشق، (١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م)، ص ص٢٠-٤٠؛ أمين سعد الله خير الله، الطب العربي، بيروت، (١٣٦٥هـ/ ١٩٤٦م)، ص ص٦٣-٦٤.

والطعام الذي يقدم إليهم، ونظافتهم وسهر الخدم عليهم واعتناء الأطباء بهم، والعلاجات التي تعطى لهم، وصحة هذه العلاجات والتحقق من عدم غشها، وويل لمن خالف في هذا، فإن كان طبيباً منع من مزاولة الطب، وكذا الصيدلي يطرد من المستشفى ويمنع من مزاولة الصيدلة، وهكذا، وربما عرض المخالف للحد والجلد، ولهذا فقد كان المحتسب أهم شخص يخشاه كافة الموظفين والأهلين، فهو مفتش إداري لكافة مرافق البلد من أهلية ورسمية.

وكان الجراحون يستعملون البنج عند إجراء العمليات الجراحية، كما كانوا يعرفون تحليل البول، فقد يكون للمريض قارورة يبول بها، لكي يطلع عليها الطبيب، ويستدل منها على درجة تماثله للصحة.

ولكل مريض بطاقة يدون بها الطبيب ملاحظاته عند المعالجة، وللطبيب سجل خاص يدون ملاحظاته عن الأمراض التي يعالجها، ويبني تجاربه واختباراته على هذه الملاحظات، وربما وضع كتاباً يجمع فيه ما لاحظه من أمور كانت قد خفيت أو دقت عن غيره من الأطباء، كما فعل الرازي وابن سينا وابن رشد وغيرهم كثير.

وكان أحد الأطباء إذا ما أعيا عليه تشخيص داء، أو معالجة مريض أو أشكل عليه أمر، فإنه كان يعرض هذا على رئيس الفرع، وهذا يعرضه على رئيس الأطباء، فعندئذ يجمع الرئيس الأطباء الذين ينسبهم لكي يفحصوا المريض ويتداولوا طريقة معالجته، فالمسلمون هم من أول الأمم الذين فكروا في مسائل علمية دقيقة، عرفت في الغرب بعد قرون، ولم يزل معمولاً بها إلى الآن، بل هي المعول عليها في معالجة المرضى في أرقى المستشفيات.

وكان بعض الأطباء يلازمون البيمارستان ليلاً ونهاراً، ويسهررون على راحة المرضى، وهي تقارب الطبيب الخفر الذي يكون في المستشفى في الوقت الحاضر، ولهم بذلك نظام يتبعوه، فبعضهم يلازم المستشفى يوماً واحداً في الأسبوع أو يومين أو أكثر نظراً لعدد أطباء المستشفى.

أمّا تدريس الطب في البيمارستان فكان متبعاً في الكثير منها، وذلك أن يكون في كل فرع من فروع لبيمارستان تلاميذ يتلقون الطب على أطباء معلومين، فبعد أن يدرس الطلاب عليه الكتب التي يراها ضرورية لأن تؤهلهم للعمل، يدخلون قاعات المرضى، ويلاحظون ما يقوم به الأطباء من تشخيص الأمراض وإعطاء العلاج اللازم لها، وإجراء العمليات الجراحية وملاحظة قوارير الفحص وغير ذلك.

ثم بعد سنين يؤذن لهم بفحص المرضى وإبداء رأيهم في إراحتهم ومعالجتهم، وهذا يكون في حضور رئيس المستشفى مع أطباء البيمارستان، فكان يجلس رئيس الأطباء في صدر المجلس، ويجلس حوله الأطباء، وحولهم الأطباء المتقدمون، ودونهم الذين سمح لهم بمشاهدة هذا وهم المبتدئون، وإذا ما عرض مريض نفسه فيتقدم التلاميذ بفحصه، فإن أعيا عليهم أمره يتقدم التلاميذ المتقدمون اليه، وإلّا يتقدم الأطباء ويشرحون للطلاب ما يرونه من أعراض المرض، وطرق المعالجة التي ينسبونها، كل هذا بحضور رئيس المستشفى، ثم يتقدم هو نفسه بإبداء ملاحظاته في أمور المعالجة، فيكون كلامه هو الفصل، وهو أسما ما وصل إليه تدريس الطب في عصرنا هذا، ويكفي العرب فخراً أنهم أول من وضع تدريس الطب على أسس علمية، هي مدار فخر الغرب في

الوقت الحاضر، فنرى مما تقدم مستشفيات المسلمين كانت راقية جداً، وأنها تضاهي ما هي عليه المستشفيات في الوقت الحاضر.

قال الدكتور غوستاف لوبون: «إن مستشفيات العرب كانت من الوجهة الصحيحة أفضل من مستشفيات الأوروبيين اليوم، بسعتها وجمال موقعها ونظافتها وكثرة مياهها وطلاقتها للهواء، **ويقول**: **وكانت المستشفيات كمستشفيات أوروبا في الوقت الحاضر**: ملاجئ للمرضى، أكثر مما يتلقونها في الكتب، ولم تقلدهم جامعات أوروبا في القرون الوسطى إلّا قليلاً»[١].

وأما العيادة الخارجية للطبيب فقد وصفها ابن الإخوة في كتابه الحسبة[٢] وصفاً دقيقاً لما كانت عليه من التحفظ، فقال: «وينبغي إذا دخل الطبيب على المريض سأله عن سبب مرضه، وعن ما يجد من الألم، ثم يرتب له قانوناً من الأشربة وغيره من العقاقير، ثم يكتب نسخة لأولياء المريض بشهادة من حضر من حضر معه عند المريض، وإذا كان من الغد حضر ونظر إلى دائه، ونظر إلى قارورته، وسأل المريض: هل تناقص به المرض أم لا؟ ثم يرتب له ما ينبغي على مقتضى الحال، ويكتب له نسخة ويسلمها لأهله، وفي اليوم الثالث كذلك، وفي اليوم الرابع كذلك، وهكذا إلى أن يبرأ المريض أو يموت، فإنْ بريء من مرضه أخذ الطبيب إجرته وكرامته، وإنْ مات حضر أولياؤه عند الحكيم المشهور، وعرضوا عليه النسخ التي كتبها

(١) غوستوف لوبون، حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، القاهرة، (١٣٧٥هـ/ ١٩٥٦م)، ص ص٤٩٢-٤٩٣.

(٢) ابن الإخوة، محمد القرشي، معالم القربى في طلب الحسبة، كامبردج، (١٣٥٦هـ/ ١٩٣٧م)، ص١٦٧.

لهم الطبيب، فإن رآها على مقتضى الحكمة وصناعة الطب من غير تفريط ولا تقصير من الطبيب»، **قال** «هذا قضي بفروع أجله، وإنْ رأى الأمر خلاف ذلك قال لهم: خذوا ديّة صاحبكم من الطبيب، فإنه هو الذي قتله بسوء صناعته وتفريطه، فكانوا يحتاطون على هذه الصورة الشريفة إلى هذا الحد حتى لا يتعاطى الطب من ليس من أهله، ولا يتهاون الطبيب في شيء منه».

٢ بيمارستانات السجن:

وهي المستشفيات الخاصة بمعالجة المسجونين، وأقدم ذكر لها يرجع إلى القرن الثالث للهجرة، وأول من فكر في هذا العمل الإنساني الجليل هو **علي بن عيسى الجراح**، (تجارب الأمم حوادث سنة ٣٠١هـ/ ٩١٤م) كان من محبي الخير والإحسان، وكان يتقلد الدواوين للخليفة المقتدر بالله العباسي، وهو الذي أوجد ديواناً خاصاً للخير سمّاه «**ديوان البر**» كان للأعمال الخيرية التي تخفف البؤس والشقاء عن الناس.

كان **علي بن عيسى** يتفقد الأمور بنفسه ليطلع على راحة الناس وما يشكون منه، كما كان يزور السجون ليقف بنفسه على حالة المساجين.

زار سجون بغداد وتفقد حالة من بها من المسجونين، وشاهد بعضهم في حالة غير مرضية، يشكون من أمراض اعترتهم، ولم يكن في السجن من يقوم بمعالجتهم وتخفيف بؤسهم، كما شاهد بعضهم في حالة سيئة وعوز من طعام، وكسوة ومنام، ورأى من البر تخفيف ما هم عليه، لذا فكر في تخصيص أطباء وصيادلة يدخلون السجون ويتفقدون من بها، فيواسون كل مصاب ويقدمون إليه ما يحتاجه،

فكتب إلى سنان بن ثابت الطبيب[١]، وهو الذي كان يتفقد البيمارستان ببغداد ما يأتي:

«فكرت - أمدّ الله في عمرك - في أمر من في الحبوس وإنهم لا يخلون - مع كثرة عددهم وجفاء أماكنهم - أن تنالهم الأمراض وهم معوقون عن التصرف في منافعهم، ولقاء من يشاورونه من الأطباء في أمراضهم، فينبغي - أكرمك الله - أن تفرد لهم أطباء، يدخلون إليهم في كل يوم، ويحملون معهم الأدوية والأشربة وما يحتاجون إليه من المزورات وتقدم إليهم، بأن يدخلوا سائر الحبوس ويعالجوا من فيها من المرضى ويريحوا عليهم فيما يصفونه لهم - إن شاء الله تعالى».

وهكذا صار في السجون بيمارستانات خاصة بها ولها الأطباء والصيادلة والقومة للعناية بأمر من في السجون.

كما أنهم اهتموا بتثقيف المساجين وتهذيبهم وحثهم على إقامة شعائر الدين الحنيف، وإرشادهم إلى طرق العبادة التي تهذب نفوسهم وتقربهم إلى الله تعالى، وتبعدهم عن الشرور والآثام التي وقعوا بها، فخصصوا لكل سجن إمام يدخل إليهم في أوقات الصلوات، يعضهم ويؤمهم في أداء صلاتهم، ويكون راتب الإمام من بيت المال.

❸ بيمارستان المدرسة:

وكان في المدارس الكبيرة طبيب يتفقد مَنْ في المدرسة من

(١) تجارب الأمم، حوادث سنة (٣٠١هـ/ ١٨٨٤م).

المدرسين والطلاب والخدم والقومة والفراشين يراجعونه إذا مرضوا، فيقوم بفحصهم ومعالجتهم.

ويكون في بعض المدارس قومة يعملون بتوجيه الطبيب، فيشرفون على المرضى وينهون أخباركم إلى الطبيب، وبعد أن يطلع الطبيب على ما ينقلونه إليه في كل يوم من أخبار المرضى الذين هم في بيمارستان المدرسة بأمرهم بما يقدمونه لكل واحد منهم، وإذا وجد حاجة لزيارة أحد المرضى فإنه كان يذهب إليه مع الموكل بالإشراف عليه، ويعيد فحصه وتفقد حاله، ثم يعطيه العلاج اللازم(١).

ويكون في المدارس الكبيرة صيدلية خاصة بها، يكون فيها العقاقير والأدوية والمعاجين، ولها صيدلاني خاص بالإشراف عليها، ويقدم ما يطلبه الطبيب لكل مريض في المدرسة.

فكان في المدرسة المستنصرية ببغداد طبيب يطب من يعرض له مرض من أرباب هذا الوقف، ويعطى المريض ما يوصف له من أدوية وأشربة وغير ذلك، وهذا يكون من الصيدلية الملحقة بالمدرسة.ومن المحسنين الذين قدموا خدمات جليلة لطلاب العلم - في هذا الباب - هو **السلطان صلاح الدين الأيوبي** (٥٦٤-٥٨٩هـ/ ١١٦٩-١١٩٣م) فإنه أوقف أوقافاً كثيرة في مصر وغيرها من البلاد، **وشاهد ابن جبير - الرحالة الأندلسي الذي زار الإسكندرية سنة (٥٧٨هـ/ ١١٥٤م) وقال عمّا وجده فيها فقال عند كلامه عنها:** «ومن

(١) المقري، لسان الدين بن الخطيب، نفح الطيب في أخبار غصن الأندلس الرطيب، مصر، (١٣٠٢هـ/ ١٨٨٥م)، ص ص١٣٢.

مناقب هذا البلد ومفاخره العائدة في الحقيقة إلى سلطانه المدارس والمحارس الموضوعة فيه لأهل الطلب والتعبد، يفدون من الأقطار النائية، فيلقى كل واحد منهم مسكناً يأوي إليه ومدرساً يعلمه الفن الذي يريد تعلمه، وإجراء يقيم به جميع أحواله، واتسع اعتناء السلطان بهؤلاء الغرباء الطارئين حتى أمر بتعيين حمامات يستحمون فيها متى احتاجوا إلى ذلك، ونصب لهم مارستان لعلاج من مرض منهم، ووكل بهم أطباء يتفقدون أحوالهم ونحت أيديهم خدام يأمرونهم بالنظر في مصالحهم التي يشيرون بها من علاج وغذاء، وقد رتب أيضاً فيه أقوام برسم الزيارة للمرضى الذين يتنزهون عن الوصول للمارستان المذكور من الغرباء خاصة وينهوم إلى الأطباء أحوالهم ليكلفوا بمعالجتهم»[١].

(١) ابن الفوطي، عبد الرزاق، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، بغداد، (١٢٥١هـ/ ١٨٣٥م)، ص٥٩.

الفصل الثاني

مستشفيات العزل

١ دُور المجانين:

سبق العرب الإفرنج بعدّة قرون في معالجة المجانين علاج الأمراض الطبيعية، واتبعوا أقوم الطرق وأسلمها في معالجة المصابين بالجنون، وكانت هذه الطرق مبنية على دراسات نفسية دقيقة.

بينما كان الجنون في أوروبا يسمّى بالمرض الشيطاني ويحسبونه من إصابات الأرواح الشريرة والجن والشياطين، وكانوا يعالجونه بالرقي والبخور والسحر والشعوذة وغير ذلك من الأمور البعيدة عن العلم والعقل، فالعرب عدّوه من الأمراض الطبيعية، وعالجوه معالجة سائر الأمراض، فكانوا يستعينون بالعقاقير، وبدراسة نفسية المصاب دراسة دقيقة حتى يقفوا على أسباب إصابته، وتفننوا في الطرق السليمة اللطيفة التي عالجوا بها البؤساء المنكوبين، فاستعملوا معهم الرفق واللين وطيب الكلام وحسن المدارات، وتلبية مطالبهم، وعنوا بطعامهم ومنامهم ونظافتهم وتأمين راحتهم في مختلف مرافق العيش، فكان الطبيب يدرس نفسية المصاب ليقف على سبب إصابته، فيعالجه بما يفيده ويعيد إليه رشده، فخصصوا لهم دُوراً خاصة عرفت بدُور المجانين.

وقد تكون دُور المجانين ملحقة بالمستشفيات (البيمارستانات) الكبيرة وتكون معزولة عنها بقضبان حديدية، كما كان في مستشفى القاهرة في القرن السادس للهجرة، لكي يقوم أطباء المستشفى بتفقد المجانين ومعالجتهم كسائر المرضى.

قال عنها ابن جبير في رحلته إلى القاهرة واصفاً البيمارستان الذي بناه صلاح الدين الأيوبي[١] ويتصل بالموضعين المذكورين موضع آخر متسع الفناء، فيه مقاصير عليها شبابيك الحديد اتخذت محابس للمجانين، ولهم أيضاً من يتفقد في كل يوم أحوالهم، ويقابلها بما يصلح لها والسلطان يتطلع هذه الأحوال كلها بالبحث والسؤال، ويؤكد في الاعتناء بها والمثابرة عليها غاية التأكيد، وكما كان في مستشفى بغداد وغيرها من المدن[٢].

وكان يشرف على الدار أطباء حاذقون، لهم وقوف على نفسيات المصابين أسباب الجنون بطرق نفسانية دقيقة، يساعدهم بهذا خدم وقومة وأعوان.

ومن طرقهم الطريفة في معالجة المصابين بالجنون هو التطيب بالوهم وتلبية مطالبهم، لأنهم يعلمون أن كلام الطبيب الحاذق ذي الشخصية القوية له أثر كبير في نفسية المريض، فتأثير الكلام الجميل الهادئ لا يقل عن تأثير العقاقير في شفاء المريض.

ولهذا كان التطبيب بالوهم له فضل قوي في شفاء الكثير من الموسوسين والمصابين بالماليخوليا والجنون.

---

(١) ابن جبير، محمد، رحلة ابن جبير، مصر، (١٣٥٦هـ/١٩٣٧م)، ص ص١٩-٢٠.

(٢) ابن الفوطي، عبد الرزاق، الحوادث الجامعة، مصدر سابق، ص٢.

والقصة التالية التي قام الطبيب وحيد الزمان مع شخص مصاب بالماليخوليا تكشف لنا عن الطرق الحكيمة البسيطة التي كانوا يتبعونها في معالجة المصابين، **قال ابن أبي أصيبعة**[١] أن مريضاً ببغداد كان قد عرض له علة الماليخوليا، وكان يعتقد أن على رأسه دناً، وأنه لا يفارقه أبداً، فكان كلما مشى يتحايد المواضع التي سقوفها قصيرة، ويمشي برفق ولا يترك أحداً يدنو منه حتى لا يميل الدن أو يقع على رأسه، وبقي بهذا المرض مدة - وهو في شدة منه - وعالجه جماعة من الأطباء، ولم يحصل بمعالجتهم تأثير ينتفع به، بير ينتفع به، وأنهي أمره إلى **وحيد الزمان** (-٥٦٠هـ/-١١٦٥م) ففكر أنه ما بقي شيء يمكن أن يبرأ به إلّا بالأمور الوهمية، **فقال لأهله**: إذا كنت في الدار فأتوني به، ثم إن أوحد الزمان أمر أحد غلمانه بأن ذلك المريض إذا دخل عليه وشرع في الكلام معه، وأشار إلى الغلام بعلامة بينهما أنه يسارع بخشبة كبيرة فيضرب بها فوق رأس المريض - على بعد منه - كأنه يريد كسر الدن الذي يزعم أنه على رأسه، وأوصى غلاماً آخر - وكان قد أعد معه دناً في أعلى السطح - أنه متى رأى ذلك الغلام قد ضرب فوق رأس صاحب الماليخوليا أن يرمي الدن الذي عنده بسرعة إلى الأرض، ولما كان أوحد الزمان في داره وأتاه المريض شرع في الكلام معه وحادثه وأنكر عليه حمله للدن، وأشار إلى الغلام الذي عنده - من غير علم المريض - **فأقبل إليه وقال**: والله لا بد لي أن أكسر هذا الدن وأريحك منه، ثم أدار تلك الخشبة التي معه وضرب بها فوق رأسه بنحو ذراع، وعند ذلك رمى

(١) ابن أبي أصيبعة، مصدر سابق، ص٢٧٩.

الغلام الآخر الدن من أعلى السطح، فكانت له وجبة عظيمة وتكسر قطعاً كثيرة فلما عاين المريض ما فعل به، ورأى الدن المنكسر تأوه لكسرهم إياه، ولم يشك أنه هو الذي كان على رأسه بزعمه، وأثر فيه الوهم أثراً برئي به من علته، وهذا باب عظيم في المداواة.

وطببوا المصابين بالموسيقى التي كانت تزيل حزنهم وهمهم وتنعش نفوسهم، وتبعث فيهم المرح والسرور، فتنسيهم مصائبهم التي أدت بهم إلى الاستياء من الحياة والجنون. **وممن اشتهر بالتطبيب بالموسيقى: الطبيب المشهور أبو بكر الرازي والكندي وغيرهما.**

ومما كانوا يعالجون به المصابين بالجنون أنهم كانوا يشغلونهم بأعمال بسيطة خفيفة مسلية، فيها شيء من الدقة والاعتناء، فاستغراق المصاب في مثل هذا العمل وانصرافه إليه يجعله ينسى ما كان قد أصابه من هم وحزن، ويعيد ثقته بنفسه، ويرى نفسه بأنه لم يزل قادراً على العمل المنسق، فتعود إليه قواه العقلية بصورة تدريجية على مر الأيام، وينسى ما كان قد علق بفكره من الوساوس والأمراض، كما أنه يتقن بعض الصناعات الدقيقة التي تعود عليه بالنفع عند مزاولتها.

وعلى هذا فإن العرب استعملوا أحكم الطرق في معالجة المصابين بالأمراض العقلية، كما أنهم حاموا حول مذهب «**فرويد**» في الطب النفساني وعلاقته بالمسائل الجنسية[١].

---

(١) العقاد، عباس محمود، أثر العرب في الحضارة الأوروبية، مصر، (١٣٦٥هـ/ ١٩٤٦م).

٢ دُور الزمنى:

★ (فر من المجذوم فرارك من الأسد).

وهي الدُور التي كان يحجر بها ذوي العاهات والأمراض المعدية، وتسمى في الوقت الحاضر بمستشفيات العزل.

وأن المسلمين فعلوا هذا امتثالاً لأمر الرسول (ﷺ)، الذي حذر من مخالطة ذوي الأمراض المعدية، وأمر باجتنابهم. **قال رسول الله (ﷺ): «لا يوردن ذو عاهة على مصح» وقال (ﷺ) أيضاً: «كلّم المجذوم وبينك وبينه قيد رمح»**[(١)].

ولـمّا جاءه وفد ثقيف كان فيهم رجل مجذوم، **فأرسل إليه (ﷺ): «ارجع فقد بايعناك»**، وحذر (ﷺ) من دخول بلد فيها الطاعون، كما أمر بعدم خروج أحد منها، كما مر.

وسار خلفاؤه على هديه، **فالخليفة عمر بن الخطاب (١٣-٢٣هـ/ ٦٣٥-١٢٣٨م) (رضي الله عنه) مرّ بامرأة مجذومة وهي تطوف بالبيت، فقال لها: «يا أمة الله لا تؤذي الناس، لو جلست في بيتك»** فجلست في بيتها[(٢)]. وعند مقدم سيدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) من أرض الشام مرّ بقوم من مجذمين من النصارى، فأمر أن يعطوا من الصدقات، وأن يجرى عليهم[(٣)].

وأوجب الإسلام على بيت المال الإنفاق على الزمن والشيخ

---

(١) ابن قيم الجوزية، الطب النبوي، مصر، (١٣٧٧هـ/١٩٥٨م).

(٢) تنوير الحوادث، ١: ٣٧١.

(٣) الحبيشي، محمد، البركة في فضل السعي والحركة، مصر، (١٣٥٤هـ/ ١٩٣٥م)، ص٨٧.

الفاني والأرملة إذا لم يكن ثمة من أقربائهم من تجب عليهم نفقتهم، ولا يفرق الإسلام في ذلك بين المسلمين وغيرهم[١].

وأوّل من عزل المجذومين وأصحاب العاهات في دُور خاصة بهم هو الخليفة الوليد بن عبد الملك، فإنه حجر على زمنى أهل الشام وكساهم، وأجرى عليهم ما يحتاجونه من الجرايات، ومنعهم من سؤال الناس، وأن الحجاج بن يوسف الثقفي اقتدى بهذا العمل الإنساني، فحجر على المجذمين والزمنى من أهل العراق، وأجرى عليهم الأرزاق، وكانت هذه الدُور النواة التي كانت منها البيمارستانات الخاصة بذوي العاهات والزمنى[٢].

والخليفة عمر بن العزيز أعطى لكل أعمى قائد، ولكل اثنين من المجذومين خادماً.

وكان الخليفة محمد المهدي من خيرة الخلفاء العباسيين الذين ساهموا بقسط وافر في الأعمال الخيرية بتشييد الملاجئ والمستشفيات ودُور الزمنى ومساعدة الأيتام والأرامل والمنقطعين[٣]. فأمر ببناء دُور خاصة بذوي العاهات، وأن يتولى أمر العناية بهم أناس يقومون بخدمتهم وتصريف أمورهم.

وكانت هذه الدُور بسيطة في أول أمرها، فكان يحجر بها على ذوي العاهات، ويعنى بأمر طعامهم ونظافتهم وكسوتهم وتخفيف

(١) حقوق الإنسان في الإسلام، ص٣٤.

(٢) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، بيروت، (١٣٠٧هـ/ ١٨٩٠م)، ص٢٠٣.

(٣) الطبري، ٣٤٢: ٩، المستجاد من فعلات الأجواد، ص٣٥٧.

مصابهم، وعلى مر العصور صار بها أطباء مختصون بمعالجة الزمنى، وقومة يتعهدون بالإشراف عليهم، وخدماً يقومون بتدبير أمورهم.

ولا ننسى فضل **المحسن الكبير مظفر الدين كوكبوري** (٥٤٩-٦٣٠هـ/ ١١٥٤-١٢٣٣م) صاحب إربل وما له من الأيادي البيضاء في هذا الباب، فإنه أسس عدة ملاجئ ودُور زمنى في إربل، وأنفق عليها بسخاء كبير.

بنى بإربل أربع دُور للزمنى والعميان، وملأها بالمصابين، وقرر لهم بها كل ما يحتاجونه يقدم إليهم كل يوم[١].

وكان يتفقدهم بنفسه في عصرية كل اثنين وخميس، ويدخل دُورهم ويقف على شؤونهن المعاشية والصحبة، وهذا فعل إنساني جليل يدل على الروح السامية المحبة للخير والمواساة التي تخفف ويلات المصابين، وكان يقدم إليهم كل ما يريحهم ويزيل عنهم بؤسهم وشقاءهم.

ومن طريف ما وجدناه: أن في مدينة إربل كان مقبرة خاصة للزمنى والعميان[٢].

وعلى هذا فقد اهتم المسلمون بأمر الزمنى والمجذومين ومعالجتهم بدُور خاصة بهم تكفل راحتهم وتخلص المجتمع من العدوى، وفي هذا الوقت كان مثل هؤلاء البؤساء في أوروبا لا يلاقون من قومهم ما يستحق الذكر، فكانوا ينظرون إلى المحموم

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان، مصر، (١٣٧٢هـ/ ١٩٥٣م).
(٢) تاريخ إربل، ٢٤١: ١.

والمصروع والذي به بثور - مرض جلدي - بأنه من الشياطين، فيوسعونه ضرباً ولكماً[١] وفي سنة (٧١٢هـ/ ١٣١٣م) أمر الملك فيليب الجميل - ملك فرنسا - بحرق جميع المجذومين لكي يخلص الناس من شرهم، وهو فعل قبيح كان من فيليب الجميل.

هذا ما كان يفعله أجدادنا العظام في أيام نهضتهم في معالجة البائسين، وما كان يفعله ملوك فرنسا معهم، فالمسلمون سبقوا الفرنج في العناية بالبؤساء واهتدوا إلى وصف الجذام والطاعون والجدري، وشرح طرق علاجاتها، وحذروا الناس منها، وأنشأوا لها دُوراً خاصة بها، وقدموا لهم كل ما يريحهم ويخفف بؤسهم وشقاءهم.

(١) من أعلام الطب العربي، ص ص٥٥-٥٦.

الفصل الثالث

المستشفيات المتنقلة

١ بيمارستان الجيش:

وهي بيمارستانات تكون مع الجيوش في حلها وترحالها، في حالتي حربها وسلمها، ويكون فيها الأطباء والصيادلة والغلمان، وكل ما يلزم المريض من وسائل الراحة والاعتناء بهم عناية فائقة، ففي الجاهلية كان النساء يرافقن الجيوش إلى ساحات القتال، ويكن في خيام منعزلة ينقلن الماء ويهيئن الطعام، وينقلن إلى خيامهن من يصاب بجرح أو طعنة، أو من يعتريه عارض يمنعه من مواصلة القتال، فيضمدن الجروح ويعنين بأمرهم.

وزاد إقبال المرأة المسلمة على الاشتراك بالحرب والعناية بالمرضى خاصة بعد أن فرض الجهاد، وأن من يستشهد يكن في الجنة، فكان النساء يتطوعن فيخرجن مع محارمهن ويشاركن في تضميد الجروح ومواساة المرضى، وربما حملن السيف وشاركن في الطعن والضرب.

ومرّ بنا أن الرسول (ﷺ) كان يستصحب معه في الحروب بعض أزواجه ونساء الأنصار، يداوين الجرحى ويسقين الماء ويحضرن الطعام، فاقتدى به أصحابه، فكان نساء الصحابة يتسابقن

في هذا الثواب، ومنهن: خولة بنت الأزور وجويرية بنت أبي سفيان وأم الدرداء وغيرهن كثير ممن كان لهن شأن يذكر في الحروب.

جاء في صحيح البخاري عن ربيع بنت معوذ بن عفراء قالت: كنا نغزو مع رسول الله (ﷺ)، نسقي القوم ونخدمهن ونرد القتلى والجرحى إلى المدينة[١].

وأوّل مستشفى للجيش في الإسلام هو ما جاء عن عبدالله بن الزبير عندما حوصر في مكة المكرمة، فإنه ضرب فسطاطاً في ناحية المسجد، فإذا جرح أحد من الصحابة أدخله ذلك الفسطاط[٢]، وما زال الأمر في ازدياد حتى صار يستصحب الجيوش أطباء وصيادلة وعقاقير وكل ما يحتاجونه من آلات وأدوات، فكان في المستشفى محامل مريحة واسعة مفروشة بألين الأثاث، لكي ينقل بها المرضى والجرحى، وأول من اتخذ المحامل هو الحجاج بن يوسف الثقفي، ثم انتشر استعمالها في كافة مستشفيات الجيوش، وصارت تحمل على عشرات الجمال.

كان مستشفى شمس الدين الملك بن نظام الملك من أكبر هذه المستشفيات، وذكروا عنه: «ومن جملة مبتدعاته في الخير أنه جعل للمعسكر السلطاني بيمارستاناً يحمل أدواته وأدويته، والأطباء والغلمان والمرضى مائتا بختي»[٣].

---

(١) الكرماني، يحيى، شرح صحيح البخاري، مصر، (١٣٥٢هـ/ ١٩٣٣م)، ص٢٠٥.

(٢) ابن قتيبة الدينوري، عبدالله، الإمامة والسياسة، مصر، (١٣٢٨هـ/ ١٩١٠م).

(٣) الأصفهاني عماد الدين، دولة آل سلجوق، مصر، (١٣١٧هـ/ ١٨٩٩م)، ص١٢٤.

ومن هذه البيمارستانات المشهورة البيمارستان الذي عمله أبو الحكم عبيدالله بن المظفر بن عبدالله بن محمد الباهلي الحكيم المغربي (٤٨٦-٥٤٩هـ/ ١٠٩٣-١١٥٤م) فقد جاء عنه: «كان ذا معرفة بالأدب والطب والهندسة، وكان طبيب المارستان الذي كان يحمله أربعون جملاً[١] المستصحب في معسكر السلطان محمود السلجوقي المتوفى سنة (٥٢٥هـ/ ١١٣١م) حيث خيّم، وكان السيد أبو الوفا يحيى بن سعيد بن يحيى بن المظفر المعروف بابن المرخم، الذي صار قاضي القضاة ببغداد أيم الإمام المقتفي، فاصداً وطبيباً في هذا البيمارستان، وكان أبو الحكم يشاركه ويعاني إصلاح مفرداته في التركيب والاختيار»[٢].

صارت هذه المستشفيات من الأمور المهمة التي ترافق الجيوش للمحافظة على صحة أفراد الجيش والعناية براحتهم ومعالجتهم، وقد يكون في البيمارستان عدة أطباء لمختلف الأمراض[٣].

وفي سنة (٦٠٤هـ/ ١٢٠٨م) كان الملك العادل قد قال للصاحب ابن مشكر: «نريد أن يكون مع الحكيم موفق الدين عبد العزيز حكيم آخر يرسم خدمة العسكر والتودد إليهم في أمراضهم، فإن الحكيم عبد العزيز ما يليق لذلك»، **فامتثل أمره وقال:** «ههنا حكيم فاضل في

(١) نفح الطيب، ٧: ١٥.

(٢) أخبار العلماء، ص٢٦٤.

(٣) ابن خلكان، وفيات الأعيان، مصدر سابق، ص٢٧٤؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، مصر، (١٣٥٠هـ/ ١٩٣١م)، ج٤، ص١٥٣.

صناعة الطب يقال له الهذب الداخور، يصلح أن يكون في خدمة مولانا»، فأمر باستخدامه.

وفي سنة (٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م) خرج الملك الأشرف أبي الفتح فاشترى خيماً وآلات لا بد منها للسفر بعشرين ألف درهم[١].

ومهذب الدين الطبيب ابن الداخور كان يطب في المعسكر الذي كان للسلطان الملك العادل الأيوبي[٢].

٢ بيمارستان السبيل:

وهي البيمارستانات التي كانت ترافق القوافل في حلها وترحالها، ومنها ما كانت ترافق المواكب الذاهبة إلى الحج، فتجهز بمواد الإسعاف والعقاقير والمعاجين وكل ما يحتاجه المرضى، وتحمل في صناديق خاصة بها، وتكون برفقة طبيب وممرضين يشرفون على صحة من في القافلة، ويسعفون من يحتاج إلى معالجة.

وكان المحسنون ومحبو الخير يتسابقون في النفقة على هذه البيمارستانات ويسمونها «بيمارستانات السبيل» وهي تكون لمعالجة كل مريض سواءً كان في القافلة أو ممن يمر بها، أو من أهل الريف الذين تمر بهما القافلة، كما يقدمون الطعام والمركوب لكل محتاج ومنقطع.

١ • وأَقدَم ذكر وقفنا عليه لهذا البيمارستان يعود إلى القرن الأول

(١) ابن أبي أصيبعة، ج٢، مصدر سابق، ص٢٤٤.
(٢) المصدر نفسه، ج٢، ص٢٤٢.

للهجرة (السابع للميلاد) جاء عن أبي الحكم الدمشقي الطبيب، وسيرة معاوية بن أبي سفيان مع ولده يزيد إلى مكة عندما سيّر يزيد أميراً على الحج في أيامه، وعهد إليه أمر معالجة المرضى[١].

٢ • ومن طريف ما يذكر أن ولده الحكم بن أبي الحكم كان طبيب الحاج مع عبد الصمد بن علي بن عبدالله ابن العباس، وبين يزيد وعبد الصمد مائة ونيف وعشرون سنة.

وكانوا يعهدون أمر الإشراف على هذه البيمارستانات إلى رجل عاقل أمين مدبر لكي يحسن التصرف، فيصرف العلاج إلى مستحقه، ولا يمنعه عن أي مريض متى احتاج اليه، ففي سنة (٦٦٤هـ/ ١٢٤٧م) سير الملك الظاهر سبيلاً إلى مكة شرفها الله تعالى، وكسوة للكعبة لشريفة، على العادة صحبة جمال الدين يوسف نائب دار العدل أمير الحاج، وعادوا إلى مصر في العشرين من صفر[٢].

وفي سنة (٧٢٠هـ/ ١٣٢٠م) حج العراقيون بسبيل ومحمل سلطاني عليه من الذهب والجوهر ما قوّم بمائتين وخمسين ألف مثقال[٣].

---

(١) المقريزي، أحمد، المواعظ والاعتبار، مصر، (١٣٢٤هـ/١٩٠٦م)، ص١٢٣، ١٦٨.

(٢) ذيل مرآة الزمان، ٢: ٣٤٦.

(٣) ذيول العبر: ١١١.

٣ • وكان ينفق على هذه البيمارستانات كثير من الأغنياء والمحسنين، فكانت خاتون السفرية المتوفية سنة (٥١٥هـ/ ١١٢١م) وهي حظية السلطان ملكشاه وأم ولديه محمد وسنجر لها في كل سنة سبيل يخرج مع الحاج، ويجهز بكل ما يحتاجه المرضى[١].

٤ • وكان مظفر الدين كوكبوري يقيم سبيلاً للحاج ويسير معهم جميع ما تدعو إليه حاجة المسافر في الطريق، ويسير معه أميناً معه خمسة آلاف دينار، ينفقها في الحرمين على المحاويج وأرباب الرواتب[٢].

٥ • كما كان الأتابكيون يرسلون مع قوافل الحجاج عدة بيمارستانات ومنها سبيل صاحب سنجار، وكان أمير السبيل خادماً أميناً معه سبيل في صناديق، وإذا حطت القافلة قعد الأمير في خيمته ويقبل عليه المرضى لمراجعة الطبيب وأخذ العلاج منه.

وفي سنة (٦٢٣هـ/ ١٢٢٦م) أرسل الملك الظاهر عمالاً لعمارة الحرم النبوي الشريف، وأرسل معهم مجير الدين أحمد أبي الحسن بن تمام طبيباً ومعه أدوية وأشربة ليطب لمن يمرض منهم[٣]. وذكر ابن بطوطة ما كان يعده

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، مصر، (١٣٢٨هـ/ ١٩١٠م)، ص١٨٩.

(٢) شذرات الذهب، ١٣٩ : ٥.

(٣) قطب الدين بن موسى، اليونيني، ذيل مرآة الزمان، حيدر آباد، (١٣٧٤هـ/ ١٩٥٥م)، ص٣٢٦.

السلطان أبو سعيد بهادرخان من الخيرات في مواكب الحج[١].

وفي سنة (٧٢٠هـ/ ١٣٢٠م) حج العراقيون بسبيل ومحمل سلطاني عليه من الذهب والجوهر ما قوّم بمائتين وخمسين ألف مثقال[٢].

❸ البيمارستان المحمول:

وهذه كانت تنتقل في الأصقاع النائية والمحلات المنقطعة، فيتفقدون المرضى ويعالجونهم، ويكون البيمارستان مجهزاً بكل ما يلزم لمعالجة المرضى من أدوات وأدوية وأطعمة وأشربة وأطباء وصيادلة وغلمان يعملون بين أيديهم، ومضمدين يشرفون على المرضى ويعنون بمداراتهم، **فكانوا يقيمون في كل يقعة ما تقتضيه المصلحة، يتفقدون المرضى والبائسين**: يجبرون المكسور، ويعالجون المصاب، ويكافحون الأمراض المتوطنة والمنتشرة بين السكان، وبعد أن يقضوا مدة مناسبة ينقلون البيمارستان إلى صقع آخر، كما كانوا يتوقفون في القرى والأماكن التي يمرون بها، ويتفقدون المرضى في طريقهم ويعالجونهم.

وهذا البيمارستان من مبتكرات المسلمين، فلم أجد من سبقهم مثل هذا العمل الإنساني الجليل.

والفضل في هذا يعود إلى علي بن عيسى الجراح وزير الخليفة

---

(١) ابن بطوطة، ١: ١٠٧.

(٢) ذيول العبر: ١١١.

المقتدر بالله العباسي، فإنه فكر بسواد العراق وما عليه السكان من سوء الحالة الصحية، وخلو هذا القسم من أطباء يتعهدون المرضى بالمعالجة، فأمر بأن يحمل إليهم بيمارستاناً يكون فيه كل مت يحتاجه المريض من أسباب العلاج، ووجد بأن خير طبيب يعهد إليه بتدبير مثل هذا العمل الإنساني هو سنان بن ثابت الحراني، وكان أحد أطباء عصره، خدم المقتدر والقاهر من بعده، وكانوا يركنون إليه في الأمور المهمة لغزارة علمه وحسن تدبيره، **فكتب إليه علي بن عيسى**: «فكرت فيمن يكون بالسواد من أهله، وأنه لا يخلو من أن يكون فيه مرضى لا يشرف متطبب عليهم لخلو السواد من الأطباء فتقدم - مدّ الله في عمرك - بإيفاد متطببين وخزانة من الأدوية والأشربة، يطوفون السواد ويقيمون في كل صقع منه مدة ما تدعو الحاجة إلى مقامهم ويعالجون فيه ثم ينتقلون إلى غيره»(*).

ووقع إليه أيضاً ووصى بالتنقل في القرى والمواضع التي فيها الأوباء الكثيرة والأمراض الفاشية، وإن لم يجدوا بذرقة - أمناً - توقفوا عن المسير حتى يصبح لهم الطريق، ويصلح السبيل، فإنهم إن فعلوا هذا وقفوا إن شاء الله تعالى.

فكان هذا أوّل ظهور المستوصفات السيّارة في العراق، وذلك في خلافة المقتدر سنة (٢٩٥-٣١٧هـ/ ٩٠٨-٩٢٩م).

(*) انظر عن علي بن عيسى: المنتظم لابن الجوزي، ٣٥١: ٦-٣٥٥؛ تجارب الأمم، ١٤٧: ١-١٨٥؛ شذرات الذهب، ٢: ٣٣٦.

٤ بيمارستان الإسعاف:

وهو الذي كان يقام في الأماكن التي يكثر بها اجتماع الناس في أوقات مختلفة كالمساجد - وقت صلاة الجمعة - والمهرجانات والمجتمعات العامة وفي الأعياد والمواسم، ويكون به طبيباً ومعه مواد إسعاف وبعض الذين يساعدونه في إسعاف من يصاب.

وأوّل من كان له الفضل في هذا هو **الأمير أحمد بن طولون (٢٢٠-٢٧٠هـ/ ٨٣٥-٨٨٣م) والي مصر**، فإنه بعد أن عمّر جامعة القاهرة سنة (٢٦٥هـ/ ٨٧٩م) عمل في مؤخر الجامع ميضأة فيها جميع الشرابات والأدوية، وعليها خدم وفيها طبيب جالس يوم الجمعة لحادث يحدث للحاضرين - وقت الصلاة - ثم انتشر هذا في بعض المدن والحواضر الإسلامية[١].

(١) المقريزي، المواعظ والاعتبار، مصر، (١٣٢٤هـ/ ١٩٠٦م)، ص٤٠٥؛ الزركلي، خير الدين، الأعلام، ط٢، القاهرة، ص١٣٧؛ زكي محمد حسن، فنون الإسلام، القاهرة، (١٣٦٧هـ/ ١٩٤٨م)، ص٥٤.

الفصل الرابع

الملاجئ الخيرية

١ دُور الحضانة:

من أفضل البر هو الإنفاق على اليتيم والمعوز، ومدّ المساعدة له في محنته وتنشئته عضواً صالحاً للمجتمع.

وقد ورد في القرآن آيات كريمة عن اليتيم في شأن حياته ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾﴾[١].

وفي السنة النبوية نجد هذه الرعاية والأجر والثواب لمن يهتم في شؤون اليتيم، **قال** (ﷺ): «**أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا، وأشار بأصبعيه السبابة والوسطى وفرج بينهما شيئاً**»[٢].

وفرض سيدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، للقيط مائة درهم، كما فرض للمولود مائة درهم[٣].

وعلى هذا نجد المسلمين من أسبق الأمم في إنشاء المعاهد

---

(١) سورة الإنسان، [الآية: ٨].

(٢) جواهر البخاري: ٤٤٦.

(٣) محمد رضا، البلاذري، عمر بن الخطاب الفاروق، ص٤٩.

الخيرية الخاصة بحضانة الأطفال، وإيواء الأيتام وتعليمهم وتهذيبهم، **وأسسوا لهذا معاهد هي:**

١ • **دُور الحضانة (دُور المراضع)**: وهي تكون للأطفال الذين فقدوا أمهاتهم ولم يكن لهم من يتولى إرضاعهم والاعتناء بهم.

٢ • **المياتم**: وهي دُور مخصصة لإيواء الأيتام وأبناء الفقراء والمعوزين الذين يصعب على أهلهم إعاشتهم والنفقة عليهم.

٣ • **الكتاتيب**: وهي المخصصة لتعليم أبناء الأيتام، وأبناء المعوزين، وكانت تسمى مكاتب السبيل، أي أنها مفتوحة لكل من يحتاجها.

أما دُور الحضانة فلم تكن معلومة في صدر الإسلام، وكان المحسنون يسلمون الطفل الذي ينفقون عليه إلى مرضعة تتولى حضانته وإرضاعه ومداراته، وهم ينفقون على الطفل والمرضعة حتى يبلغ سن التعلم.

وأوّل من نظم دُور الحضانة وخصص لها داراً هو المحسن الكبير مظفر الدين كوكبوري صاحب إربل، فقد كان له الفضل في أمر ترتيب دار حضانة لإيواء الأطفال واللقطاء، وتخصيص مراضع مقيمات في الدار، ورتب فيها قومه وخدماً يتعهدون من في الدار، وطبياً يشرف عليهم، وجهز الدار بكل ما يحتاجه من أثاث ولوازم وطعام وألعاب.

وبلغ من اهتمامه بأمر الأطفال أنه كان يدخل الدار كل يوم ويتفقد بنفسه أحوالهم، فيقف عند كل طفل منهم ويلاطفه ويسأله

عن حاله وراحته وما يشتهيه من الطعام، وما يرغب به من الثياب والألعاب، وكان يأمر بإحضار كل ما يشتهيه اليتامى في الحال، وبلغ من شفقته بهم وحبهم له أنه كان إذا دخل الدار تسارعوا إليه، والتفوا حوله أو تعلقوا به، وهو يداعبهم ويسألهم عن كل ما يرغبون به.

كما كان يتفقد طعامهم ومنامهم وثيابهم وراحتهم، وكان يجزل العطاء للمرضعات اللاتي يبذلن عناية خاصة بالأطفال واليتامى، حتى ذكروا أن نفقته على هذا بلغت مائة ألف دينار في السنة، وصار في البلاد الإسلامية دُور حضانة ومياتم كثيرة لإيواء الأطفال والعناية بهم إلى أن يبغوا سن التعلم ثم ينقلون إلى مكاتب السبيل.

كما أن أحمد بن طولون - صاحب مصر - كان يعنى في اللقطاء، يرعاهم وينفق عليهم[1].

أمّا مكاتب السبيل فكان أكثرها محلاً لإيواء الأيتام والنفقة عليهم بكل ما يحتاجونه، وفي القليل منها كان ينفق على الصبي بنصيب معين مع تعليمه ويكون في دار أهله.

وأقدم مكتب للسبيل وقفنا على ذكره هو الذي أسسه يحيى البرمكي في بغداد في القرن الثاني للهجرة، فإنه بنى مكتباً للأيتام، وكان ينفق على من يعلم ويتعلم به.

ثم ازدادت هذه المكاتب في البلاد الإسلامية فلم تخل مدينة منها، بل كان في بعضها عشرات المكاتب، كما كان في بغداد والقاهرة والشام، وكانت هذه الكاتب تؤوي أبناء السبيل وتعلمهم

(١) العقد الفريد: ٩١.

وتنفق عليهم كل ما يحتاجونه من لوازم، فهم مكفولون بها إلى أن يبلغوا الحلم، وبعد هذا يخيرون بي مواصلة التعليم في المدارس أو اختيار مهنة تضمن لهم معيشتهم.

وممّن اهتم بأمر اليتامى: شمس الدين بن نظام الملك السلجوقي، فإنه بنى بمحلة القتابين ببغداد مكتباً للأيتام، ووقف عليها وقوفاً مستمرة الجدوى على الدوام، والأيتام مكفولون فيها إلى أن يبلغوا الحلم بالنفقة والكسوة والطعام وتعليم الآداب وحفظ القرآن الكريم ومعرفة الحلال والحرام(١).

وبنى **نور الدين الشهيد** (٥٤١-٥٦٩هـ/ ١١٤٧-١١٧٤م) مكاتب للأيتام والمعوزين في بلاده وأجرى عليهم وعلى من يعلمهم، ويتولى أمرهم، وكان يتفقدها بنفسه(٢).

وبنى **مجاهدين قيماز الرومي** (المتوفى سنة ٥٩٥هـ/ ١١٩٩م) متكها للأيتام والمعوزين في بلاده، وأجرى عليهم كل ما يحتاجونه(٣).

وبنى **صلاح الدين الأيوبي** (٥٦٤-٥٨٩هـ/ ١١٦٩-١١٩٣م) مكاتب كثيرة في بلاده وجعلها للأيتام ولأبناء المعوزين، وكان ينفق عليها وعلى من يتولى أمورها.

وهكذا زادت هذه المكاتب على مرّ العصور حتى صار عشرات

---

(١) الديوه جي، الخدمات الاجتماعية في الإسلام، مصدر سابق، ص ص١١-١٢.

(٢) المصدر نفسه، ص١٢.

(٣) ابن خلكان، مصدر سابق، ص ص٢-٢٧.

منها في الحواضر الإسلامية الكبيرة، وكانوا يبنون هذه المكاتب بجانب مدرسة أو تربة أو دار قرآن أو دار حديث أو خانقاه أو غير ذلك، وكانت بعض هذه الكتاتيب تتسع لمئات الطلاب الذين فقدوا آباءهم، ولكنهم لم يعدموا من يتولى أمرهم ويحنو عليهم، فكان مكتب السلطان في القاهرة - يجاور مدرسته - من هذه المكاتب الكبيرة.

وفي سنة (٧٥٧هـ/ ١٣٥٦م) سقطت المنارة التي على باب مدرسة السلطان حسن، فهلك ثلاثمائة نفس من الأيتام الذين كانوا رتبوا في مكتب السبيل ومن غيرهم، فكم كان في المكتب من طلاب؟ هذا مكتب واحد من عشرات المكاتب التي كانت في مدينة القاهرة.

وكان الأيتام إذا ما بلغوا سن الرشد فإنهم يخيرون بين طلب العلم في المدارس أو الانصراف إلى ما يختارونه من الأعمال المختلفة.

أمّا البنات فبعد أن يعلمن ويدربن على الأعمال الزوجية فإنهم كانوا يزوجونهن بمن يضمن لهن حياة زوجية سعيدة. وبلغ من اهتمام الناس بأمر البنات والحرص على تزويجهن صيانة لهن أن بعض المحسنين خصصوا أوقافاً على تجهيز البنات إلى أزواجهن وهن اللواتي لا قدرة لأهلن على تجهيزهن، وهكذا كانت البنت تجهز من الأوقاف المرصدة لهذا العمل الإنساني الجليل.

٢ دُور العجزة:

من المؤسسات الخيرية التي اهتم بها المسلمون هي دُور العجزة والمقعدين الذين خانتهم قواهم عن كسب الرزق، وعزّ

على المسلمين أن يروا هؤلاء البائسين يسألون الناس ما يحتاجونه بعد أن كانوا من العاملين في خدمة المجتمع، فاهتموا في تقديم المساعدة اليهم، وسهلوا لهم تدبير معيشتهم وأراحوهم من عناء الفقر والفاقة.

فشيّدوا لهم الدُور المختلفة، وأوقفوا لها كل ما يحتاجونه من طعام ومنام وثياب وخدمة، تقدم إليهم كل يوم، ويرفه عنهم بما يزيل وحشتهم وينعش أنفسهم ويعتزون بإخوانهم الذين لم يتخاذلوا عنهم بمد أيدي المساعدة إليهم عند الحاجة، بل إنهم سهلوا لهم كل صعب وقدموا إليهم كل ما يحتاجونه.

وبلغ الأمر أنهم كانوا يعطون من صدقة الفطر للرهبان[١]. كما أن الصحابي خالد بن الوليد كان يرفع الجزية عنهم ويحث على إعالة العاجز منهم ما دام في دار الإسلام[٢].

وأوّل من نراه يهتم بأمر العجزة هو الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) فإنه رأى شيخاً نصرانياً يتسول ففرض له من بيت المال.

وأوّل من جمعهم في دُور خاصة بهم للعناية بأمورهم هو الخليفة الوليد بن عبد الملك (٨٦-٩٦هـ/ ٧٠٥-٧١٥م) فقد عزّ عليه أن يراهم يتكففون في الطرقات، فأمر بجمعهم في دُور خاصة بهم، وأن يقدم إليهم كل ما يحتاجونه من طعام ومنام وكسوة وخدمة، وخصص لكل مقعد خادماً يكون في خدمته.

وسار ولاته على هذا السبيل الخيري، وفي طليعتهم الحجاج

---

(١) الأموال: ٦١٣-٦١٤.

(٢) مجموع الوثائق السياسية في عهد الرسول، ص٢٩٢.

بن يوسف الثقفي فإنه جمع العميان والمقعدين والمجذمين في دُور خاصة بهم وأجرى عليهم ما يحتاجونه.

وكان **الخليفة عمر بن عبد العزيز** (٩٩-١٠١هـ/ ٧١٨-٧٢٠م) من أسبق الناس إلى فعل الخيرات وتقديم المبرات والمساعدات، يتفقد المرضى والعجزة وأصحاب العاهات بنفسه، ويسألهم عن حاجاتهم وما يرغبون به.

جاءه صاحب الرقيق يسأل أرزاقهم وكسوتهم وما يصلحهم، فقال له عمر: «كم هي؟» قال: هم كذا وكذا ألفاً، فكتب إلى أمصار الشام أن ارفعوا إلى كل أعمى في الديوان، أو مقعد به فالج، أو من به زمانه تحول بينه وبين القيام إلى الصلاة، فرفعوا إليه، فأمر لكل أعمى بقائد ولكل اثنين من المقعدين أو الزمنى بخادم، وفضل من الرقيق، فكتب أن ارفعوا إلى كل يتيم ومن لا أحد له ممن قد جرى على والده الديوان، فأمر لكل خمسة بخادم يتوزعونه بينهم بالسوية[١].

ونجد الخلفاء في طليعة القوم بعمل الخير، يتفقدون العجزة والمحتاجين وأصحاب العاهات، ويؤكدون على عمالهم أن يقدموا إليهم من المعونة ما يكفيهم، ويدفع عنهم مذلة السؤال.

ذكر أبو يوسف: أن الخليفة المنصور (١٣٦-١٥٨هـ/ ٧٥٤-٧٧٥م) أمر عامله بالبصرة أن يجري على الفقراء والقواعد من النساء اللواتي لا أزواج لهن وعلى العميان والأيتام ما تكفيهم من النفقة **(الخراج)**.

---

(١) ابن الجوزي، مصدر سابق، ص١٥٥.

وسار **الخليفة المهدي** (١٥٨-١٦٩هـ/ ٧٧٥-٧٨٦م) على نهج والده في الاهتمام بأمر البؤساء والعاجزين والمعوزين، فبنى لهم الملاجئ، وأجرى عليهم ما يلومهم.

وكذلك **الخليفة المأمون** (١٩٨-٢٠٢هـ/ ٨١٤-٨١٨م) فإنه بنى في المدن الكبيرة دُوراً خاصة للأيتام والعميان والنساء العاجزات.

ومن أشهر المحسنين الذين عنوا بالعجزة والمقعدين والأيتام والأرامل هو **مظفر الدين كوكبوري** (٥٤٩-٦٣٠هـ/ ١١٥٤-١٢٣٣م) صاحب إربل، وله أيادي بيضاء في هذا الباب، فقدم لهم خدمات جليلة مما جعل اسمه في طليعة المحسنين.

❸ الأربطة:

وكما كانت الأربطة في البلاد الإسلامية دُور عبادة وعلم ودُور إرشاد وهداية، فقد كانت - أيضاً - دُور مواساة لكل مقعد وعاجز لا يتمكن من العمل، فإنه يجد في الرباط ما يحتاجه من طعام ومنام وكسوة وحسن مداراة.

وبعد القرن الثالث للهجرة كثرت دُور العجزة والأربطة (الرباطات) في البلاد الإسلامية، وقلما كانت تخلو مدينة منها، بل إننا نجد في بعضها عشرات الأربطة.

الأربطة التي كانت في البلاد الإسلامية كثيرة جداً، وبخاصة ما كان خاصاً بالرجال، حتى أن بعض الملوك جعل ثلث واردات بلاده تكون وقفاً على الأربطة المعدة لإيواء العاجزين وأبناء السبيل والمنقطعين عن بلادهم، وأخبار الأربطة المخصصة للرجال في البلاد الإسلامية مستفيضة في كتب التاريخ وغيرها.

أمّا الأربطة التي كانت مخصصة لإيواء العاجزات من النساء فهي أقل مما كان مخصصاً للرجال، ونجد فيها من الأنظمة الدقيقة ما يصون المرأة ويكفل تعليمها وتهذيبها وإصلاح ما أعوج من خلقها وإرشادها إلى طريق الهداية والصواب والخير.

ومنها الأربطة الخاصة بالقواعد من النساء اللاتي لا يجدن ما ينفقن على أنفسهن، فتكون مفتوحة أمامهن، ويجدن فيها كل ما يحتجنه من أسباب العيش، كما يكن في الرباط شيخة عالمة عاقلة مدبرة، تتولى تعليمهن وإرشادهن، فهي دُور مواساة ودُور تهذيب وعبادة. وفي حلب سبع خوانق بنيت للنساء فقط[١].

وفي سنة (٦٥٢هـ/ ١٢٥٤م) أوقف الخليفة المستعصم بالله العباسي «دار الشط» المجاور لدار الملك ببغداد رباطاً للنساء المحتاجات، وجعلت شيخته الشريفة بنت المهتدي، وهي النبي كانت تتولى تعليمهن وإرشادهن[٢].

وفي سنة (٦٥٠هـ/ ١٢٥٢م) بنت السيدة فاطمة الأيوبية رباطاً في دمشق للنساء الفقيرات، **وكتبت فوق بابه**: «وقفت هذه الخانكاه - الرباط - فاطمة بنت الملك العادل بن أبي بكر بن أيوب على الفقيرات المقيمات بها وإظهار للصوات الخمس والمبيت فيها».

ورباط البغدادية في القاهرة كان من الرباطات التي لها شأن يذكر في خدمة النساء وتهذيبهن عدة قرون، بنته **السيدة الجليلة تذكار باي خاتون ابنة الملك الظاهر بيبرس سنة (٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م)**

(١) الأعلاق الخطيرة، ١: ٩٥.

(٢) ابن الفوطي، مصدر سابق، ص٢٧٤.

للشيخة الصالحة زينب ابنة أبي البركات المعروفة ببنت البغدادية فأنزلتها به، ومعها عدد من النساء الخيرات التقيات يساعدنها في إدارة من يكون في إدارة من يكون في الرباط، تعظ النساء وتذكرهن وتفقهن في الدين، ويكون في هذا الرباط النساء اللواتي طلقن أو هجرن حتى يتزوجن أو يرجعن إلى أزواجهن صيانة لهن، لما كان فيه من شدة الضبط وغاية الاحتراز والمواضبة على وظائف العبادات.

وممن تولين مشيخة هذا الرباط: الشيخة الصالحة أم زينب فاطمة بنت عباس البغدادية، وكانت فقيهة وافرة العلم، زاهدة قانعة باليسير، عابدة واعظة، حريصة على النفع العام والتذكير، ذات إخلاص وخشية وأمر بالمعروف، انتفع بها كثير من نساء دمشق ومصر، وكان لها قبول زائد ووقع في النفوس، توفيت سنة (٧١٤هـ/ ١٣١٥م)(*).

وبنى **أبو بكر المادراني رباطاً في القاهرة**، وأوقفه على نساء الأشراف المنكوبات من اللواتي أعوزهن النصير، وقعد بهن الحظ، وشرط أن يكون في الرباط شيخة عالمة تقية جليلة تشرف على من فيه وتتولى تدبيرهن، فتخفف من بؤسهن وترشدهن وتعلمهن وتفقهن في الدين.

ورباط الحجازية أنشأته السيدة فوز جارية علي بن أحمد الجرجراني بجوار مسجدها، وأوقفته على أم الخير الحجازية

(*) (ج٤، ص ص٢٩٣-٢٩٤). لم أوفق في معرفة المصدر والذي ورد على هذا النحو.

الواعظة، وكانت الحجازية واعظة زمانها، ومن الخيّرات العابدات، تتصدر حلقات التدريس والوعظ في **جامع عمرو بن العاص (حوالى سنة ٤١٥هـ/ ١٠٢٤م)** وكانت تعظ المقيمات بهذا الرباط وتثقفهن وترشدهن إلى الخير والصلاح[١].

ورباط الأندلس أنشأته السيدة علم الآمرية ابنة الخليفة الفاطمي الآمر بأحكام الله وذلك سنة (٥١٦هـ/ ١١٢٢م)، بجوار مسجدها، وحصصته لإقامة الأرامل والعجائز والمنقطعات، وخصصت لهن ما يكفيهن.

ومن هذه الأربطة: رباط سنقر السعدي، أنشأه الأمير شمس الدين سنقر السعدي - نقيب المماليك السلطانية - في سنة (٧١٥هـ/ ١٣١٥م) بجوار مدرسته لإقامة النساء المنقطعات والأرامل، وأوقف لهن كل ما يحتجنه.

وكان بقرافة مصر عدة دُور، يقال للدار منها رباط على هيئة ما كانت عليه أزواج النبي (ﷺ)، يكون فيها العجائز والأرامل العابدات، ولها الجرايات والفتوحات، ولهن شيخة للوعظ والتعليم[٢].

٤ دُور العميان:

وهي دُور خاصة تجمع فيها لإيوائهم ومداراتهم والاعتناء بهم، **وأوّل من أجرى على العميان هو الخليفة الوليد بن عبد الملك،** فكان

---

(١) الخدمات الاجتماعية في الإسلام، مصدر سابق، ص١٨.

(٢) حسن عبد الوهاب، دُور كفالة المرأة في الإسلام، مجلة لواء الإسلام، السنة الأولى، العدد السادس، القاهرة، ص ص٤٩-٥٥.

يجري على عميان أهل الشام، وخصص لهم محلات لإيوائهم، وكساهم وأعطى لكل أعمى قائداً يعينه في تنقله وتصريف أموره. ثم تبعه الحجاج بن يوسف الثقفي، فأجرى على عميان أهل العراق.

وكان **الخليفة المهدي** من الذين يعنون في الملاجئ الخيرية، فبنى للعميان الدُور وجمعهم بها وكساهم، وأمر بالإجراء عليهم، وكثرت بعد هذا ملاجيء العميان.

وكانوا يتعهدون بتحفيظهم كتاب الله (ﷻ) مع ترتيله وتدبره، كما كانوا يعلمونهم التراتيل والأناشيد والضرب على الآلات الموسيقية، ولا يمهلون تعليمهم وتثقيفهم، وهكذا كانوا يستفيدون منهم في الأعمال التي يمكن أن يتعلموها، ويزيلوا عنهم السآمة والملل.

ولا ننسى فضل المحسن الكبير مظفر الدين كوكبوري، فإنه بنى بإربل (٤) دُور للزمنى والعميان، وملأها من هذين الصنفين، وقدر لهم جميعاً ما يحتاجون إليه، وكان يتفقدهم بنفسه، فيأتيهم في عصرية كل اثنين وخميس ويدخل دُورهم، ثم يأتي إلى كل واحد منهم في غرفته ويتفقد طعامه ومنامه وحسن مداراته ويسأل عن حاله وعمّا يرغب به، ثم يأمر له بشيء من النفقة، ثم ينتقل إلى الآخر، وهكذا حتى يتفقدهم جميعهم وهو يباسطهم ويمزح معهم ويجبر قلوبهم.

المصادر والمراجع

١ ● **ابن أبي أصيبعة أحمد**

□ عيون الأنباء في طبقات الأطباء، مصر، (١٣٢٩هـ/ ١٩١١م).

٢ ● **ابن الإخوة**

□ محمد القرشي، معالم القربى في طلب الحسبة، كامبردج، بريطانيا، (١٣٥٦هـ/ ١٩٣٧م).

٣ ● **ابن الجوزي**

□ عبد الرحمن، سيرة عمر بن عبد العزيز، مصر، (١٣٣١هـ/ ١٩١٣م).

٤ ● **ابن العبري**

□ غريغوريوس، تاريخ مختصر الدول، بيروت، (١٣٠٧هـ/ ١٨٩٠م).

٥ ● **ابن العماد الحنبلي**

□ عبد الحق، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، مصر، (١٣٥٠هـ/ ١٩٣١م).

٦ ● **ابن الفوطي**

□ عبد الرزاق، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، بغداد، (١٣٥١هـ/ ١٩٣٢م).

٧ • **ابن المستوفي**

□ شرف الدين أبي البركات المبارك بن أحمد اللخمي الأربلي، تاريخ إربل، تحقيق سامي القصار، دار الرشيد للنشر، بغداد، (١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م).

٨ • **ابن بطوطة**

□ أحمد، تحفة النظار في غرائب الأمصار، مصر، (١٣٥٣هـ/ ١٩٣٤م).

٩ • **ابن جبير**

□ محمد، رحلة ابن جبير، مصر، (١٣٥٦هـ/ ١٩٣٧م).

١٠ • **ابن خلكان**

□ أحمد، وفيات الأعيان، مصر، (١٣٧٢هـ/ ١٩٥٣م).

١١ • **ابن عبد ربه**

□ أحمد، العقد الفريد، مصر، (١٣٧٢هـ/ ١٩٥٣م).

١٢ • **ابن قتيبة الدينوري**

□ عبدالله، الإمامة والسياسة، مصر، (١٣٢٨هـ/ ١٩١٠م).

١٣ • **ابن قيم الجوزية**

□ محمد، الطب النبوي، مصر، (١٣٧٧هـ/ ١٩٥٨م).

١٤ • **ابن كثير**

□ إسماعيل، البداية والنهاية، مصر، (١٣٢٨هـ/ ١٩١٠م).

١٥ • **أحمد عيسى بك**

□ البيمارستانات في الإسلام، دمشق، (١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م).

١٦ • **الأصفهاني، عماد الدين**

□ دولة آل سلجوق، مصر، (١٣١٧هـ/ ١٨٩٩م).

١٧ • **أمين، سعد خير الله**

□ الطب العربي، بيروت، (١٣٦٥هـ/ ١٩٤٦م).

١٨ • **التلمساني، الشيخ أحمد بن محمد المقري**

□ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار صادر، بيروت، (١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م).

١٩ • **الجاحظ، عمرو**

□ البيان والتبيين، القاهرة، (١٣٥١هـ/ ١٩٣٢م).

٢٠ • **جوهرة البيان في نسب قضيب البان**، مخطوط في المتحف العراقي نسخة منه.

٢١ • **الحبيشي، محمد**

□ البركة في فضل السعي والحركة، مصر، (١٣٥٤هـ/ ١٩٣٥م).

٢٢ • **حسن عبد الوهاب**

□ دُور كفالة المرأة في الإسلام، مجلة لواء الإسلام، السنة الأولى، العدد السادس، القاهرة.

٢٣ • **حميد الله، محمد**

□ مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبزي والخلافة الراشدة، دار النفائس، بيروت، (١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م).

٢٤ • **الديوه چي، سعيد**

□ الأمير خالد بن يزيد، دمشق، (١٣٧١هـ/ ١٩٥٢م).

□ الخدمات الاجتماعية في الإسلام، الموصل، (١٣٧٤هـ/ ١٩٥٥م).

□ بيت الحكمة، الموصل، (١٣٧٢هـ/ ١٩٥٣م).

□ جوامع الموصل، بغداد، (١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢م).

٢٥ • **الذهبي، الحافظ**

□ العبر في خبر من غبر، تحقيق أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، (١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م).

٢٦ • **الزركلي، خير الدين**

□ الأعلام، الطبعة الثانية، القاهرة،

٢٧ • **زكي، حسن محمد**

□ فنون الإسلام، مصر، (١٣٦٧هـ/ ١٩٤٨م).

٢٨ • **السلمي، عبد الرحمن**

□ طبقات الصوفية،

٢٩ • **صاعد بن محمد الأندلسي**

□ طبقات الأمم، مطبعة السعادة، مصر.

٣٠ • **العقاد، عباس محمود**

□ أثر العرب في الحضارة الأوروبية، مصر، (١٣٦٥هـ/ ١٩٤٦م).

٣١ • **الغزالي، الإمام أبو حامد محمد**

□ مصر، (١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢م).

٣٢ • **غوستاف، لوبون**

□ حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، القاهرة، (١٣٧٥هـ/ ١٩٥٦م).

٣٣ • **قطب الدين، موسى اليونيني**

□ ذيل مرآة الزمان، حيدر آباد، (١٣٧٤هـ/ ١٩٥٥م).

٣٤ • **القفطي، الوزير جمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف**

□ أخبار العلماء بأخبار الحكماء، دار الكتب العلمية، بيروت، (١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م).

٣٥ • **القفطي، علي**

□ إخبار العلماء بأخبار الحكماء، مصر، (١٣٢٦هـ/١٩٠٨م).

٣٦ • **الكرماني، يحيى**

□ شرح صحيح بخاري، مصر، (١٣٥٢هـ/١٩٣٣م).

٣٧ • **المقري، لسان الدين بن الخطيب**

□ نفح الطيبفي أخبار غصن الأندلس الرطيب، مصر، (١٣٠٣هـ/١٨٨٦م).

٣٨ • **المقريزي، أحمد**

□ المواعظ والاعتبار، (المعروف بخطط المقريزي) مصر، (١٣٢٤هـ/١٩٠٦م).

فهرس المحتويات

تقديم الدكتور أُبيّ سعيد الديوه چي ٥

المقدمة ٧

الفصل الأول: المستشفيات الثابتة ١٥

١ البيمارستان (المستشفى) ١٥

٢ بيمارستانات السجن ٢٢

٣ بيمارستان المدرسة ٢٣

الفصل الثاني: مستشفيات العزل ٢٧

١ دُور المجانين ٢٧

٢ دُور الزمنى ٣١

الفصل الثالث: المستشفيات المتنقلة ٣٥

١ بيمارستان الجيش ٣٥

٢ بيمارستان السبيل ٣٨

٣ البيمارستان المحمول ٤١
٤ بيمارستان الإسعاف ٤٣
الفصل الرابع: الملاجئ الخيرية ٤٥
١ دُور الحضانة ٤٥
٢ دُور العجزة ٤٩
٣ الأربطة ٥٢
٤ دُور العميان ٥٥
المصادر والمراجع ٥٧